صورة الشهيد في شعر كعب بن مالك

((بحث))

الدكتورة

هناء فاضل سلمان

كلية الادآب / الجامعة المستنصرية

قسم اللغة العربية

الخطة

المقدمة

التمهيد

المبحث الأول / أنواع صور الشهادة في شعر كعب بن مالك

المبحث الثاني / الدراسة الفنية

النتائج
قائمة المصادر والمراجع

المبحث الأول
أنواع صور الشهادة في شعر كعب بن مالك

١. صورة البطل
٢. صورة الشجاعة والقوة
٣. صورة الجود بالنفس

((المقدمة))

كانت رسالة الإسلام نقطة تحول في حياة العرب شملت جميع الأصعدة ، السياسية والفكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ... والإسلام هذا القادم الجديد عالج أدق تفاصيل الحياة العربية بما فيها الشعر ، فقد اتخذ الإسلام كما يبدو من ظاهر الأمر موقفاً عدائياً من الشعر ولاسيما الشعر الذي كان يوجه ضد الإسلام والمسلمين ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى عادى الإسلام الشعر الذي لا يدعو إلى الأخلاق النبيلة والقيم العالية ، كان هذا الموقف منصباً على الجانب الذي يهيم في كل واد ، والذي ينأى قائله عن الفعل ، ولكنه في ذاته حث الشعراء المسلمين على قول الشعر والدفاع عن الدين الجديد ، لان الشعر صوت إعلامي يصل إلى إرجاء الجزيرة ، وقد رُوي أن كعب بن مالك سأل رسول الله ((صلى الله علية وسلم)) قائلاً يارسول الله ماترى في الشعر ؟ فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : ((المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه)) وهذا يعني إن رثاء الشهداء ينطوي تحت الجهاد باللسان لذلك قررت دارسة ((صورة الشهيد في شعر كعب بن مالك)) وتكمن أهمية الموضوع في انه يتناول قضية تمس شغاف قلوبنا جميعاً وهم الشهداء الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم ((أحياء عند ربهم يرزقون)) وهذه الصورة هي الأهم والجامعة والقاسم المشترك لكل الصور التي وردت في ديوان كعب بن مالك .

قسمت هذا البحث إلى المقدمة ، فبينت فيها أسباب اختياري للموضوع ، ومدخل تحدثت فيه عن حياة الشاعر والتمهيد تحدثت من خلاله عن معنى الشهادة لغة واصطلاحا أما المبحث الأول فتناول أنواع صور الشهادة في شعر كعب بين مالك وإما المبحث الثاني فحاول أن يتلمس الوجه الفني لصور الشهادة ثم انتهى البحث بالخاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

((التمهيد))

الشهيد : لغة الحاضر ومنه الشهادة التي تقابل الغيب كما في قوله تعالى **((عالم الغيب والشهادة))**[١١] ومنه قوله الشاهد الذي يشهد ويرى ويسمع .

وقد وردت لفظة ((الشهيد)) مفردة ، مجموعة ، ومثناه خمساً وثلاثين مرة في القرآن الكريم ، وجاءت جميع معانيها ذات دلالة لغوية ، ماعدا موضعين ، وهو قوله تعالى **((وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجاء بالبنين والشهداء))**[١٢] **وقوله تعالى ((والذين امنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم))**[١٣] في هاتين الآيتين تأخذ لفظة الشهيد (الجمع) الجمع معنى إصلاحيا يدل على من قتل في سبيل الله تعالى دفاعا عن دينه ورد العدوان عن ألإسلام والمسلمين لكي تكون كلمة الله هي العليا ، وليس كما يزعم أعداء الإسلام في تصويرهم اندفاع المسلمين للجهاد حباً للغزو وتهافتا على المكاسب والمغانم .. وإنما جهاد ملؤه العقيدة الصادقة والإيمان الحق الذي يدفع صاحبه الى طلب الاستشهاد طلباً لرضوان الله ، والظفر بما وعد به من حسن الجزاء

كذلك جاءت لفظة ((الشهيد)) في الحديث النبوي الشريف ، كما في قوله (عليه واله أفضل الصلاة والسلام : ((مأمن ذ نفس تموت لها عند الله خير يسرها ، وما فيها الا الشهيد ، لما يرى من فضل الشهادة فيتمنى ان يرجع فيقتل مرة اخرى))[١٤].
وبهذا أصاب لفظ ((الشهيد)) تطور دلالي انتقل بها من معنى حسي دال على من يرى ويسمع إلى معنى معنوي اخر دال على المنزله الرفيعة التي يحضى بها حين يقتل في سبيل الله وقد جرى استعمال الكلمة بهذا المعنى منذ ظهور الإسلام حتى ألان ، بحيث تكاد تطمس دلالتها اللغوية ، إلا ما جاء من اشتقاقاتها اللغوية على غير لفظ (الشهيد ، كالشاهد ، على سبيل المثال ، التي تدل دلالة ((قضائية))في إجراءات المحاكم والمعنى لها كأن نقول : شاهدت فلافا ، اي رأيته ..

حياته

هو كعب بن مالك بن ابي كعب بن القين بن كعب بن سواد . واسم ابي كعب عمرو ، ويكنى ابا عبد الله ، وقيل عبد الرحمن وقيل ابو محمد وقيل ابو بشير المدني[١] الشاعر قال البغوي : حدثنا عبد الله بن احمد ، حدثني هارون بن اسماعيل والد كعب بن مالك قال : ((كانت كنية كعب بن ملك في الجاهلية ابا بشير ، فكناه[٢] عليه أفضل الصلاة والسلام أبا عبد الله)).

ولم يكن لمالك ولد غير؟ كعب الشاعر المشهور شهد العقبة الثانية ولم يشهد بدراً ، ثم شهد سائر مشاهد الرسول غير غزوة بدر وتبوك[٣] . فانه تخلف عنها ، اما بدر فلم يعاتب الرسول محمد ((صلى الله عليه وسلم)) احداً تخلف عن المشاركة فيها ، للسرعة التي رافقت الإعداد والتجهيز والمسير، واما تبوك فتخلف عنها لشدة الحر ((وهو احد الثلاثة الذين خلفوا ، حتى ضاقت الارض عليهم بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وهم كعب بن مالك ، مرارة بن ربيعة ، وهلال بن امية))[٤] وانزل عليهم قوله تعالى ((وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا اضاقت عليهم الارض بما رحبت)) فتاب الله عليهم والقصة[٥] مشهورة . اما يوم احد فقد لبس كعب لامه الحرة وجرح احد عشر جرحاً.

وكان كعب من شعراء الرسول محمد ((صلى الله عليه وسلم)) قال ابن سيرين ((كان شعراء النبي محمد ((صلى الله عليه وسلم)) حسان بن ثابت ، كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان بن مالك يخوفهم بالحرب ، وكان حسان يقبل على الانساب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بكفرهم))[٦] .

إسلامه

أكرمه الله بالإسلام قبل أن يشهد العقبة ، وهو في موطنه ((يثرب)) وكان يصلي سراً عن قومه، ولكنه انتهز فرصة خروج قومه من المشركين في الموسم لكي يبايع رسول الله على حمايته ومنعه بما يمنع منه عائلته ، وذلك في شهر ذي الحجة قبل هجرة النبي محمد ((صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بشهرين وقيل بثلاثة أشهر ، وقد بلغنا أن دوساً ((إحدى قبائل العرب)) أسلمت خوفاً من قول كعب بين مالك : [٧]

قضينا من ِتهامَة كل ريبٍ

وخيبر ثم اجممنا السيوفا

نخيرها ولو نطقتْ لقالت

قوا طعهن : دوساً او ثقيفا

فقالت دوس : خذوا لانفسكم قبل ان ينزل بكم مانزل بثقيف

ويروي ان رسول الله ((صلى الله عليه وسلم)) قال لكعب : **اترى ان الله ينسى لك قولك** [٨]

جاءت سخينة كي ُتغالب رّبها

فليغلبنَّ مغالب الغلابَّ

((وسخينة)) لقب لقريش كانوا يعيرون به وروى ان كعباً قال له رسول الله ((صلى الله عليه وسلم)) ((ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه))[٩]

عمى كعب في اخر عمره ، وتوفى في خلافة معاوية سنة ثلاث وخمسون وهو ابن سبعة وسبعين . [١٠]

أنواع صور الشهادة في شعر كعب بن مالك .

تنوعت الصور التي تدل على معنى ((الشهيد)) في شعر كعب بن مالك لما لمعناها من دلالات دينية جوهرية ، لكونها جاءت تعبيراً عما يمثله القتل في سبيل الله ، في الصراع الذي كان دائراً بين المسلمين الأوائل والكفار ، وقد ظهر ذلك واضحاً من خلال تكرار هذه المفردة في أشعاره ، سواء أكان بالإشارة إليها بصور مباشرة أم بالتلميح ، من خلال الفوز بالجنة ومن هذه الصور :

١.صورة البطل
٢.صور الشجاعة والقوة
٣.صورة الجود بالنفس

١. صورة البطل

بَطلَ وبُطوُلة : شَجُع واستبسل فهو بَطَلٌ والجمع أِبطال ، البطولة هي نصرة الحق ودرع الباطل وتصحيح المغالطات والبطل اصطلاحاً ((كفي لدفع عادية الرجال[١٥])) تنوعت صور البطل في شعر كعب وهو باعث طبيعي لتعبير عن قفايا المسلمين بوصفها جوهر الصراع ، مع المشركين كما في قوله [١٦]

سائل قريشاً غداة السفح من أُحُد

ماذا لقينا وما لاقوا من الهَرب

كنا الأسوَد وكانوا النمر إذ زحفوا

ما إن نراقب من آل ولأنسب

فكم تركنا بها من سّيد بطل

حامي الذّمار كريم الجد والحسَب

فينا الرسول شهابُ ثم يتبعه

نور مضيئ له فضل على الشهب

الحق منطقه والعدل سيرته

فمن يجبه إليه ينج من تبب

نحدُ المقدم ، ماضي الهم معتزم

حين القلوب علىَ رَجفٍ من الرُّعب

يمضي ويذمرنا عن غير معصية

كأنه البدر لمُ يطبع على الكذب

بدا لنا فاتبعناه نصّدقه

وكذبوه فكنا اسعدَ العرب

جالوا وجلنا فما فاءوا وما رَجعوا

ونحن نثفنهم لم نأل في الطلب

ليسا سواء وشتى بين أمرهما

حزب الإله وأهل الشرك والنصب

يبقى البطل حالة منفردة على مستوى النفس ، وهو الجود بها اما على مستوى الكلي قلة دلالة جمعية منبثقة عن العقيدة وروح الايمان القار في الجماعة ،

وعندما نقرأ هذه العقيدة نجد ان الشاعر زاوج بين الخطاب الشعري وبين الشهادة التي تمثل الروح في الجسد ، فلسنا امام نظم ، وانما امام تجربة ذات لغة جزلة قوية ، رنينها بالغ كل نفس ، وموسيقاها تحمل ذاك البريق الخطابي الذي يؤدي رسالة مفادها ان المسلمين يتميزون بالشجاعة والبسالة وانهم ابطال ، يشبهون الاسود في المعارك فضلا عن الموقف الشعري الذي تمثله عملية الخلق الفني والمعنوي والنفسي ، ليصل الى مستوى الكمال وهو يصور وجود الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) معهم في المعركة وكانه كالبدر بين النجوم ، وقد ارتبطت هذه الصور بالمسالة دينية ، وهي تصوير الصراع بين المشركين والمسلمين ،

يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار ان التعبير عن البطولة في شعر كعب ين مالك لم يكن منوطاً بفرد يفخر بنفسه او بقبيلة يفخر الشاعر بعصبته في نسبة فيها ، وانما جاء الفخر في شعره ، ذا معنى جمعي مرتبط بعقيدة ((الجهاد)) إحدى السبل في انتشار الإسلام ، وفي هذا الاتجاه يقول كعب يوم خيبر (١٧)

ونحن وردنا خيبراً وفروضه

بكل فتى عاري الاشاجع مِذودِ

جواد لدى الغايات لا واهن القرى

جريءٌ على الاعداء في كل مشهد

عظيم رماد القدر في كل شتوه

ضروب بنصل المشرفي المهند

يرى القتل مدحاً ان اصاب شهادة

من الله يرجوها وفوزاً بأحمد

يذود ويحمي عن ذمار محمد

ويدافع عنه باللسان وباليد

وينصره من كل أمر يريبه

يجوُ بنفس دون نفس محمد

يصدق بالانباء بالغيب مخلصاً

يريد بذلك الفوز والعزَّفي غد

في القصيدة صورة حيوية توحي بالحركة والروح الفدائية ، فالشاعر يرسم لنا حسن بلاء المسلمين في صراعهم مع المشركين . كما هو واضح ، تعبيراً عن الاقدام الذي يودي الى طلب ((الشهادة)) دفاعاً عن محمد (ص الله عليه وسلم) وتصديقاً لما جاء به من الغيب. ولاشك في ان هذه الأبيات ذات نزعة إسلامية خالصة لاسيما انها ربطت بين فعل انساني (القتل في سبيل الله = الشهادة) والجزاء الاخروي المتمثل بـ ((ألعزفي الغد)) ويعني به الجنه ، وهذه نبرة جديدة في الشعر العربي الاسلامي كان كعب بن مالك احد الشعراء الذين اسهموا في تجليها وهذا مانراه جليا في القصيدة الاتية :(١٨)

امر الالهُ بربطها لعدوه

في الحرب ان الله خير موفق

لتكون غيظاً للعدو وحيَطاَ

للدار ان(٢٩)فت خيول النزق

يعيننا الله العزيز بقوةٍ

منه وصدق الصبر ساعة نلتقي

نطيع امر نبينا ونجيبه

وإذا عدا الكريهة لم نسبق

متى ينادي الى الشدائد نأتها

ومتى نر الحومات فيها نعنق

من يتبع قول النبي فانه

فينا مطاع الأمر حق مصدق

فبذاك ينصرنا ويظهر عزنا

ويصيبنا من نيل ذاك بمرفق

أن الذين يكذبون محمداً

كفروا وضلوا عن سبيل المتقي

تشكلت صورة البطل في النص السابق عاملاً مِّن عوامل الدفع للبعد الدلالي والمعنوي للقصيدة فالشاعر يصور بلاء المسلمين وشجاعتهم في مواجهة الأعداء، وتبقى صور المعارك الطاحنة ، وغبار الخيول وهي تحجب الشمس وروس الرماح وهي تلمع هي اللوحة الفنية التي تجسد شجاعة المسلمين في مواجهة الأعداء . فقد جاءت القصيدة في بنائها الكلي تعبيراً صريحاً عن فعل الشهيد في المعركة .

الشجاعة والقوة :

عرف العرب منذ القدم انهم اصحاب قوة وشجاعة ، ولاسيما بعد بزوغ شمس الاسلام ، اثناء الدعوة الى الاسلام والصراع مع المشركين ، وما تبع ذلك من عصور .

لذا وضعوا امامهم صورة الرجولة الحقة ، شبت معهم مع بعض لتصبح سجية يقتدي بها الاخرون على مر السنين ، واكسبتهم الحياة الشجاعة في سلمهم وفي حروبهم ، فقد ظل العربي المسلم او مايزال يرى ان القوة رفعة شان ، وعظم مكانة يقوي بها وبتحري السبل ليحتويها ، وكان لهذا اهمية في صورة الشهيد في شعر كعب بن مالك يقول : (١٩)

ابلغ قريشاً وخير القول أصدقه

والصدق عند ذوي الالباب مقبول

ان قد قتلنا بقتلانا سراتكم

اهل اللواء ففيم يكثرُ القيل ؟

يوم بدر لقيناكم لنا مدد

فيه مع النصر ميكال وجبريل

أن تقتلونا فدين الحق فطرتنا

والقتل في الحق عند الله تفضيل (١١)

وان تروا امرنا في رأيكم سفها

فراي من خالف الاسلام تضليل

فلا تمنوا لقاح الحرب واقتعدوا

ان اخا الحرب اصدى اللون مشعول

ان لكم عندنا ضرباً تراح لها

عرج الضباع له خذمٌ رعابيل

انا بنو الحرب نمريها ونشجها

وعندنا لذوي الاصغان تنيكل

ان ينبح منها ابن حرب بعدما بلغت

منه الترافي وامر الله مفعول

فقد أفادت له حلماً وموعظة

لمن يكون له لب ومعقول

فقد صور الشاعر في هذه القصيدة شجاعة المسلمين في مواجهة المشركين يوم بدر ، ولكنها شجاعة منبثقة عن عقيدة يضحي فيها المسلم بكل شي في سبيل إعزاز دينه فهو يضحي بأمه وأبيه وولده وكل شي وقد علا صوته وهو يفتخر بنيل الشهادة في سبيل الله وتأييد الملائكة لهم ، فأستعمل أسلوب الأمر للإخبار عن بطولاتهم ، وما حققه من انتصارات في معاركهم وكأنه يريد إيصال هذه الحقائق إلى جميع الناس

وقال كعب يوم (احد) : (٢٠)

الا ابلغا فهراً على ناي دارها

وعندهم من علمنا اليوم مصدق

بانا غداة السفح من بطن يثربٍ

صبرنا ورايات المينه تخفق

صبرنا لهم والصبر منا سجية

اذا طارت الابرام نسمو ونزنق

على عادة تلكم جرينا بصبرنا

وقدما لدى الغايات نجري فنسبق

لنا حومة لاتستطاع يقودها

نبي اتى بالحق عفَّ مصدق

الاهل اتي افناء فهر بن مالك

مقطع اطراف وهام مغلقٌ

يصور كعب في هذه الابيات شجاعة المسلمين وصبرهم اروع تصوير على حين كانت رايات المنية تخفق فوق رؤوسهم ، وانهم لايخافون الموت لان لهم غايات يقاتلون من اجلها ، وهي اعلاء كلمة الله ونيل الشهادة في سبيله

لقد استطاع الشعر ان يوثب مشاعر المسلمين ويدخل في نفوسهم الحماسة ويثير في دواخلهم اسباب الجهاد دفاعاً عن المبدأ ووفاء بتعاليم الاسلام ، ورغبة في

تحقيق الاستشهاد بعد ان اصبح طريقاً من طرق المفاخر ولونا من الوان المحافل التي تمنح الانسان الخلود البقاء وفي ذلك كعب (٢١)

الابلغ قريشا على نأيها

اتفحرُ منا بما لم تلي ؟

فخرتم بقتلى أصابتهم

فواضل من نعم المفضل

فحلوا جناناً وابقوا لكم

اسوداً تحامي عن الاشبل

تقاتل عن دينها وسطها

نبي عن الحق لم ينكل

رمته معد بعور الكلام

ونبل العداوة لا تأثلي

لقد جسد الشاعر في الابيات ملامح الشخصية الاسلامية المتمثلة في الشجاعة ، متخطياً في وصفه الاسلوب المباشر في رسم صوره الشهيد ، المقدم الذي يريد الشهادة لنيل الفوز ، ولاشك في ان هذه القصيدة وامثالها التي تعبر عن المضمون نفسه تندرج في ((الشعر الاسلامي)) الذي يستوحي العقيدة ويقيم صلة مباشرة بين النفس والله سبحانة وتعالى.

(١٤)

وكثيراً مايصبح التأكيد على هزيمة الغزاة هو النهاية المحتومة والحالة الاخيرة التي ينتهي اليها كعب بن مالك في شعره لاشاعة روح الانتصار في نفوس المؤمنين ، وترسيخ جانب الهزيمة في نفوس الاعداء وفي هذا يقول : (٢٢)

وسائلةٍ تسائلُ مالقينا

ولو شهدت راتنا صابرينا

صبرنا لانرى الله عدلاً

على مانابنا متوكلينا

وكان لنا النبي وزير صدق

به نعلو البرية اجمعنا

تقاتل معشراً ظلموا وعقوا

وكانوا بالعداوة مُرصدينا

نعاجلهم اذا انهضوا الينا

بضرب يعجل المتسرعينا

ترانا في فضا فض سابغات

كغدران الملا متسر بلينا

وفي إيماننا بيض خفاف

بها نشفي مراح الشاغبينا

بباب الخندقين كان اسداً

شوابكها(ع ي)حمين العريانا

فوارسنا اذا بكروا وراحوا

على الاعداء شوساً معلمينا

لننصر احمداً والله حتى

نكون عباد صدق مخلصينا

ويعلم اهل مكة حين ساروا

واحزاب اتوا متحزبينا

بان الله ليس له شريك

وان الله مولى المؤمنينا

فاما تقاتلوا سعداً سفاها

فان الله خير القادرينا

سيدخلة جناناً طيبات

تكون مقامة للصالحينا

كما قد ردكم فلا شريداً

بغيظكم خزايا خائبينا

خزايا لم تنالوا ثم خيراً

وكدتم ان تكونوا دامريناً

بريح عاصف هبت عليكم

فكنتم تحتها متكمهينا

(٢)

القصيدة فيها صورة متالقة لجيوش المسلمين ، تتجلى فيها الاسود الغاضبة ، والسابغات ، العرين ، تغير على الاعداء بضراوة وتجهيز على الفوارس باحكام

ومهارة فائقة تلك المهارة التي اكتسبوها من رائدهم ونبيهم الرسول محمد(ص) وترى الشاعر لايقف عند هذا الحد بل رسم لنا صورة الشهيد ((سعد بن معاذ)) الذي استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش .

الجود بالنفس :

الجود لغة : صفة تحمل صاحبها على بذل ماينبغي من الخير لغير العوض (٢٣)

وتكتب هذه المفردة ((الجود بالنفس)) لكونها الزاهي لانها توحي بالقدرة القتالية المتميزة ، وبالبذل اللامتناهي الذي لايطلب عرضاً سوى الرضا والخلق الرفيع فهي وان كانت مفردة محدودة من حيث الاداء ، فان لها معنى متسعاً يبقى تأثيرها فاعلاً بمقدار ماتؤديه من حالات مختلفة في صورها ، واحدة في دلالاتها . كما جماليتها متأنية من ارتباطاتها ((التعبيرية الاخرى)) دلالة على ما يقدمه المضحي من عطاء في اطار الاداء البطولي والذي يتجلى في اثناء المنازلة . والاستشهاد قيمة تسمو الى درجة تعطي الشهيد شرف الخلود وكرمه التكريم وجلال السمو.

لقد أسهمت قدرة كعب بن مالك الشعرية في توثيق اواصر المفردة واعطائها ماتستحق في التعبير عن الشهداء ولاسيما حمزة بن عبد المطلب (رضوان الله عليه) (٢٤)

صفية قومي ولاتعجزي

وبكي النساء على حمزة (١٧)

ولاتسأمي ان تطيلي البكا

على اسد الله في الهزة

فقد كان عزاً لايتامنا

وليث الملاحم في البزَّة

يريد بذاك رضا احمد

ورضوان ذي العرش والعزة

يبقى الموقف الشجاع في نصرة الحق والاستجابة له من مبادئ العقيدة الاسلامية ، وهو الدافع المحرك له ، وهذا الموقف يصوره كعب في رثائه لحمزة رضوان الله عليه واصفاً اياه انه كان معيلاً للأيتام أيام السلم ، وانه في ايام الحرب اسد لا يضام ، وانه ضحى بنفسه من اجل رض الله ورض الرسول الكريم محمد (ص) .

والجود بالنفس قيمة بمقدار التضحية والشجاعة الذي يقدمه المضحي في ساحة المعركة . والاستشهاد قيمة تسمو الى درجة تعطي الشهيد شرف الخلود وكرامة التكريم وجلال السمو ... وتكثر هذه المفردة ((الجود بالنفس))في رثاء الشهداء وهي تذكر مناقب المرثي وتعدد ، ووجوه شجاعته ، وبلائه ، واقتداره، وصولاته حتى تتحول هذه الابيات الى امجاد تاريخيه يجد فيها الشاعر وجهاً من وجوه الاستشارة وصوتاً من اصوات الكوامن التي تعيد للمرثي جانباً من افعالة وحالة من حالات الاعتزاز به . اما من جانب الدين فان الشاعر يوثب مشاعر المسلمين ويبعث في نفوس المقاتلين حب الشهادة مما يدفعهم الى الجود بانفسهم في سبيل الله كما في قوله : (٢٥)

بكت عيني وحقَّ لها بكاها **(١٨)**

ومايغني البكاء ولا العويل

على اسد الاله غداة قالوا

أحمزة ذاكم الرجل القتيل

اصيب المسلمون به جمعياً

هناك وقد اصيب به الرسول

ابا يعلى لك الاركان هدَّت

وانت الماجد البر الوصول

عليك سلام ربك في جنان

مخالطها نعيم لايزال

الا ياهاشم الأخيار صبراً

فكل فعالكم حسن جميل

رسول الله مصطبر كريم

بأمر الله ينطق اذ يقول

الا من مبلغ عني لؤياً

فبعد اليوم دائلة تدول

وقبل اليوم ماعرفوا وذاقوا

وقا تعنا بها يشفى الغليل

نسيتم ضربنا بقليب بدر

غداه اتاكم الموت العجيل

لقد أفاض الشاعر بالحديث عن مناقب الحمزة (رضي الله عنه) وقد حاول إن يستمد من معارك المسلمين صوت شاعريته ويستلهم من تضحيتهم إيمان المبادئ التي يدافع عنها ، وقد اكد في رثاء الحمزة (رض الله عنه) الدور البطولي الذي قام به الحمزة في معركة (بدر) ومعارك المسلمين السابقة حتى صار حديثه من احاديث البطولة .

ويمكن اعتماد قصائد كعب بن مالك في توثيق معارك الجهاد التي خاضها البطل (حمزة) (رض الله عنه) في مواجهة المشركين وهو في كل قصائد يشير الى شجاعته والهلع الذي يأخذ بقلوب خصومه والفزع الذي يستحوذ عليهم في مواجهة كما في قوله :(٢٦)

عم النبي محمد صفية

ورد الحمام فطاب ذاك المورد

واتى المنية معلماً في اسره

نصروا النبي ومنهم المستشهد

وقد اخال بذاك هنداً بشرت

لتميت داخل غصة لاتبرد

مما صحبنا بالعقنقل قومها **(٢٠)**

يوماً تغيب منه عنها الاسعد

وبئر بدر اذا يردَّ وجوههم

جبريل تحت لوائنا ومحمد

حتى رايت لدى النبَّي سراتهم

قسمين : يقتل من نشاء ويطرد

فاقام بالطِّعَن المُعطنِّ منهم

سبعون : عتبة منهم والاسود

وابن المغيرة قد ضربنا ضربة

فوق الوريد لها رشاس مربد

وامية الجمحي قوم َميلهْ

عضب بأيدي المؤمنين مهند

فأتاك فل المشركين كأنهم

والخيل تثفتهُمُ نعام شرد

شتان من هو جهنم ثاويا

ابداً ومن هو في الجنان مخلد

يصور كعب في هذه الأبيات جود سيدنا الحمزة (رض) ولاعجب في ذلك كونه عم النبي وينتمي لبيت عريق في الجود والكرم ، ثم يرسم صورة في المعركة بانه كالاسد يخيفهم ويرهبهم يقودهم كالانعام في المعركة ثم يجري مقرنة بينه وبين ابن المغيرة وامية الجمحي في الشجاعة ويخلص الى القول ان حمزة في الجنة فخلد وان المشركين في النار مثواهم .(٢١)

الصورة والخيال :

من خلال عرضنا للنصوص السابقة نجد ان صورة الشهيد في شعر كعب بن مالك لم تخرج ، في تصويره وتخيله ، الى ابعد من حدود بيئته ، فالشاعر لم يتخيل إلا ما يراه ماثلاً إمامه من عالم الحسي والمادة ، لذلك يمكن القول ان الشاعر كان واقعياً في تعبيره عن موضوعات شعره ، وبلفظ موجز فان ((الخيال ، الواقع بنوعيه الحسي والذهني وما يتعلق بهما من مؤثرات)) (٢٧) وهي مصادر الصورة . فضلاً عن القرآن الكريم ، وآياته ، وصورة قصته ، واساليبة والحديث النبوي الشريف وامثلته وتعبيراته وعظاته ، ومعارك المسلمين مع المشركين كلها تعد مصادر الصورة في الشعر كعب وقد استعان العرب منذ القدم في اشعارهم لغرض التأثير في سامعيهم بطائفة من الاساليب واكثرها دوارنا في اشعارهم التشبيه فلم يصفوا شيئاً ألا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي (٢٨) . وعد ((القدماء التشبيه اشرف الكلام ومظهر الفطنه والبراعة)) (٢٩)

في صورة الشهيد في شعر كعب بن مالك نماذج كثيرة لتثبيهات منها قوله في رثاء شهداء مؤته (٣٠)

نام العيون ودمع عينك يهمل

سحا كما وكف الطباب المخضل

في ليلةٍ وردت عليّ همومها

طوراً احنَّ وتاره اتململ (٢٢)

واعتادني حزن فبت كانني

ببنات نعش والسماك الموكل

وكانما بين الجوانح والحشى

مما تأوبني شهاب مدخل

وجداً على النفر الذين تتابعوا

يوماً بموته اسندوا لم ينقلوا

صلى الاله عليهم من فتية

وسقى عظامهم الغمام المسيل

صبروا بموته للاله نفوسهم

حذر الردى وفحامة ان ينكلوا

فمضوا امام المسلمين كأنهم

فنق عليهن الحديد المرفل

إذا يهتدون بجعفر ولوائه

قدَّام اولهم فنعم الاول

حتى تفرجت الصفوف وجعفر

حيث التقى وعث الصفوف مَّجدل

فتغير القمر المنير لفقده

والشمس قد كسفت كادت تأفل

تطالعنا في القصيدة تشبيهات عدةٍ وخفها الشاعر لوصف معركة مؤته ، وحزنه على شهدائها ولاسيما الشهيد جعفر بن ابي طالب (رض الله عنه) كأنه مثل القمر تحمله بنات نعش ، ثم ينتقل بتشبيهاته الى حاله سمعية وصوتيه ، محاولاً تبدو صورة الشهيد حقيقة عبر تشبيه المسلمين بفحول الابل عند اشتباكم مع المشركين ثم يخلص الى وصف صورة جعفر بن ابي طالب الذي كان يحمل لواء المسلمين بيمنة فقطعت فأخذها بشماله فقطعت فاحتضة بعضده حتى استشهد (رض الله عنه) نجد ان هذه التشبهات عملت على رسم صورة واضحة الابعاد فما اخفى على النص بينه تصويرية متكاملة من ناحية الحركة والشكل وفي ابيات اخرى قال: (٣١)

قذفنا في السوابغ كل صقر

كريم غير معتلث الزناد

أشمَّ كأنه اسد عبوس

غداة ندى ببطن الجزع غادي

هذه صورة للشهيد البطل الذي يهجم على الاعداء ((كأسد)) واصبح يخيفهم ويرهبهم لا لشئ الا ليظهر دين الله ونيل الشهادة .

وفي ابيات اخرى يصف الخيول في معارك المسلمين مع الاعداء فيقول : (٣٢)

وخيل تراها بالفضاء كأنها

جراد صبا في قرهٍ يتربع

فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى

(٢٤)

وليس الامر حمّه الله مدفع

ضربناهم حتى تركنا سراتهم

كانهم بالقاع خشب مصرع

لدنّ عدوة حتى اتفقنا عشية

كأن ذكانا حَّر نار تلفع

ورحوا سراعاًً موجفين كأنهم

جهام هراقت ماءْ الريح مقلع

ورحنا واخرانا بطاء كأننا

اسود على لحم بيشة ظلع

هذه الصورة من اجمل الصور واوقعها واروعها واصدقها تمثيلاً للحقيقة واشدها امتلاء بالحركة ، حتى ليخيل اليك معها انك ترى ذلك الجيش وتسير معه وتشهد خيله ، فالشاعر يصور شجاعة المسلمين في معاركهم وضربهم الاعداء حتى القوهم ارضاً كانهم خشب مطروح ، وهو يستمد تشبيهاته من عالم البيئة الذي حوله وقال ايضاً (٣٣)

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا

قدما ونلحقها اذا لم تلحق

ماحل بالاعداء مثل لقائنا

يوم النجاح ويومنا بالخندق

فترى الجماجم ضاحياً هاماتها

بله الاكف كأنها لم تخلق

تعطينا هذه الابيات صوره المهاجمين المسلمين بكل عزيمة وثبات على الاعداء ، ضاربين بسيوف الحق رقابهم وتاركين جثثهم تملأ الأرض طعاماً للطيور الجارحة والذئاب الجائعة .وقال أيضا : (٣٢)

تقاتل معشراً ظلموا وعقوا

وكانوا بالعداوة مرصدينا

نعالجهم اذا نهضوا الينا

بضرب بعجل المتسرعينا

ترانا في فضاض سابغات

بها نشفى مزاح الشاغبينا

بباب الخندقين كأن اسداَ

شوابكهن يحمين العرينا

فوارسنا إذا بكروا وراحوا

على الاعداء شوساً معلمينا

لننصر احمداً والله حتى

نكون عباد صدق مخلصينا

نلحظ ان صورة التشبيهات تكون متكررة لدى كعب بن مالك فهذه الصورة التي يصف فيها جند المسلمين الذين يخرجون الى المعركة مبكرين مثل الاسود يتشبثون في اماكنهم يرعبون الأعداء ، لأتخلف عن الصور السابقة التي ذكرناها .

(٢٦)

اما "الكناية" فقد جاءت في شعر كعب بن مالك بنسبة اقل من التشبية ، والكناية من الفنون البلاغية ذات الاداء الرفيع ، لذلك تتطلب ثقافة واسعة فضلا عن الموهية الشعرية وقد عرفها البلاغون الدلالة على الشئ من غير تصريح باسمه [٣٥]

ومن الكنايات الرائعة قوله [٣٦]

أشمّ كأنه أسد عبوس

غداة ندى ببطن الجزع غادي

تضافر على هذا البيت التشبيه والكنايه ، حين وصف المحارب (أشم الانف) كنايةً عن العزة لدى العرب وقوله ايضاً [٣٧]

جوادٍ لدى الغايات لاواهن القوى

جري على الاعداء في كل مشهد

عظيم رماد القدر في كل شتوة

ضروب بنصل المشرفي المهند

يرى القتل مدحاً إن اصاب شهادة

من الله يرجوها وفوزاً بأحمد

في هذه الأبيات ثلاث كنايات الأولى كنايه عن الشجاعة ((جرئُ على الأعداء)) والثانية عن شدة كرم الشهيد ((عظيم رماد القدر)) والثالثة كناية عن الشهادة

((يرى القتل مدحا)) وهذه الكنايات شائعة للاستعمال في الشعر القديم في وقت ظلت تلاحق الشعراء ، فيستعملونها حتى بعد ظهور الإسلام اما قوله [٣٨]

فسلوا ذوي الآكل عن سروانا

يوم العريض فحاجر فروام

إنا لمنع ما اردنا منعه

ونجود بالمعروف للمعتام

في النص كنايتان الاولى في صدر البيت الاول ((فسلوا ذوي الآكال)) وقد رمزت الى شيئين الاول الى الرأي والاخر الى المرؤه ، اما الكنايه الاخرى فهي ((للمعتام)) كنايه للضيف الذي ياتي في ثلث الليل الاول وقال ايضاً: (٣٩)

الاهل اتى غسان في نأي دراها

واخبر شي بالامور عليمها

بأن قدرمتنا عن شئ علاوة

معد معاً جهالها وحليمها

لانا عبدنا الله لم نرج غيره

رجاء الجنان إذا اتانا زعيمها

نلمس في هذه الابيات كنايه ((إذا اتانا زعيمها)) والزعيم هنا الرئيس وهي كناية عن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)

اما استعاراته ، فقد سلك فيها كعب(٢٨) بن مالك مسلكاً عفوياً والاستعارة تتمثل في ((خلق الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية ، الانفعالات الوجدانية – هذه الحياة ترتقي فتصبح حياة انسانية تشمل المواد الظواهر والانفعالات ...)) (٤٠)

ويقول كعب بن مالك (٤١)

واتى المنية معلماً في اسره

نصروا النبي ومنهم المتشهد

اعتمد الشاعر على الاستعارة لتصوير حالة الشهيد في لحظة الاستشهاد ((اتى المنية))

وقال ايضاً (٤٢)

نصرنا مما تلقى لنا من كتيبة

يد الدهر الاجبرئيل امامها

لقد اعتمد الشاعر على الاستعارة المكنية(يد الدهر) لتصوير معارك المسلمين من ان جبريل عليه السلام يقاتل معهم في المعارك .

وفي احيان يلجأ الشاعر استعمال استعارات غريبة كما في قوله في رثاء حمزة (رض) (٤٣)

نشجت وهل لك من منشج

وكنت متى تذكرُ تلجج

تذكر قوم اتاني لهم

احاديث في " زمن الاعواج "

فقوله ((زمن الاعواج)) استعارة مكنية دلت على عظم حزن الشاعر على حمزة (رض)

وقال ايضاً (٤٤)

بمذربات الاكف نواهل

وبكل ابيض كالغدير مهند

يصور لنا الشاعر من خلال هذه الاستعارة ((بالاكف نواهل)) سيوف المسلمين بأنها سنان حادة على الاعداء .

ونخلص الى القول ان الشاعر كعب بن مالك لم يكن مبدعاً كل الابداع في تصويره الفني ولا مقلد كل التقليد الشاعر الجاهلي ، الا انه حقق في بعض الأحيان صفات خاصة مأخوذة من موروثة وثقافته الاسلاميه .

(٣٠)

النتائج

وبعد .. فتلك هي نهاية الرحلة في عالم الشهادة في شعر كعب بن مالك ، وهي رحلةً حققت نتائج تستحق ما بذل من اجلها من جهد وصبر.

أثبتت الدراسة ان صورة الشهيد في شعر كعب بن ملك تندرج تحت ثلاثة اتجاهات ، الاول : صورة الشهيد البطل ، والثاني : صورة الشهيد الشجاع ، والثالث صورة الجود بالنفس ، وهذه الصور هي لون من ألوان شعر العقيدة تميزت معانيها وألفاظها بالصدق والإيمان ، وغلب عليها طابع الخيال البسيط ، لذلك جاء معظم شعره مقطعات يخلو التطويل .

اما صورة البيانية فقد جاء التشبيه في المرتبة الاولى ولاسيما التشبيه بالاداة (كأن) ، وجاءت الكناية في المرتبة الثانية ، والاستعارة في المرتبة الاخيرة .

وما يمكن ملاحظته على اغراضه الشعرية ان السمة الغالبة في شعره كانت للرثاء والهجاء ثم الفخر وتميز اسلوبه في رثاء الشهداء بأسلوب غير ما عهد في العصر الجاهلي ، فهو لايكتفي في رثاء الشهيد وتشبيهه بالاسد وشجاعته فضلاً عن وصف شهامته وكرمه ، بل يقرر مصير الشهادة وهي الفوز برحمة الله ورضوانه وجنته فهو رثاء جديد في تعابيره والفاظه لانه اتخذ طابعاً دينياً اسلامياً .

وكعب يعد مؤرخاً في شعره فعندما تقرأ قصائده تشعر بانك امام كتاب في الادب الاسلامي ، فهو يسجل المعارك والوقائع واسماء المعارك واسماء الصحابة والشهداء فكان شعره سفر من اسفار التاريخ .

وهذا يعني ان شعره يمكن ان يعد ، مع شعر ابن رواحه ، بدايات للشعر الاسلامي ، وصورة من صور العقيدة الاسلامية .

الهوامش

١. أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الاثير ابي الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠) تح محمد ابراهيم البناء واخرون / مطبعة الشعب . دت ج ٤ :٤٨٧

٢. الاشعاب في معرفة الاصحاب لابي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر / تح علي محمد البجاوي ،مكتبة النهضة بمصر . د.ت ج٣ :١٢٥
٣. الاغاني / ابو فرج علي بن حسين الاصفهاني (ت ٣٥٦هـ) تحقيق / احسان عباس / دار الحديث / القاهرة / ط٢ /٢٠٠٨ /١٥: ٢٦
٤. أسد الغابة ج٤ :٤٨٨
٥. سورة التوبة ١١٨
٦. الاستيعاب ٣: ١٢٦
٧. ديوان كعب بن مالك الانصاري / دارسة وتحقيق الدكتور سامي مكي العاني / عالم الكتب / ط٢ /١٩٩٧ /١٨٨
٨. المصدر نفسه ١٥٣
٩. مسند احمد بن حنبل ابي عبد الله الشيباني / طبعة جديدة مصححة ومفهرسة / دار احياء التراث / بيروت / ط٣ /١٩٩٣ /ج٣ : ٤٥٦
١٠. أسد الغابة ٤ : ٤٨٩
١١. سورة المؤمنون ٩٢
١٢. سورة الزمر ٦٩
١٣. سورة الحديد ١٩
١٤. مسند احمد بن حبنل ٣ : ١٥٣
١٥. ينظر موسوعة الشعر العربي / اختارها وشرحها / مطاع صفدي وايليا الحاوي / بيروت /١٩٧٤ / ٤٠
١٦. ديوان كعب بن مالك ١٤٩
١٧. المصدر نفسه ١٦٤
١٨. المصدر نفسه ١٩٦ -١٩٧
١٩. المصدر نفسه ٢٠٢-٢٠٣
٢٠. المصدر نفسه ١٩٣
٢١. المصدر نفسه ٢٠١

٢٢. المصدر نفسه ٢١٥ -٢١٦
٢٣. ينظر لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) اعادة بنائه على الحروف يوسف خياط ونديم مرعشلي / دار لسان العرب بيروت د . ت ماده(جود)
٢٤. ديوان كعب بن مالك ١٧٥
٢٥. المصدر نفسه ٢٠٠
٢٦. المصدر نفسه ١٦٠
٢٧. الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث / د. بشرى موسى صالح / المركز الثقافي العربي / ط١ / ١٩٩٤ / ٤٣
٢٨. تاريخ الادب العربي / العصر الجاهلي / د. شوقي ضيف / دار المعارف بمصر / ط ٦ . د. ت / ٢٢٨
٢٩. الصوره الفنية في التراث النقدي والبلاغي / د. جابر عصفور / دار التنوير للطباعة والنشر ١٩٨٣ / ٢١٦
٣٠. ديوان كعب بن مالك ٢٠٥-٢٠٦
٣١. المصدر نفسه ١٦٣
٣٢. المصدر نفسه ١٨٣
٣٣. المصدر نفسه ١٩٥
٣٤. المصدر نفسه ٢١٥-٢١٦
٣٥. دلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجاني / قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي / القاهرة / ط٢ / ١٩٨٩ /٧١
٣٦. المصدر نفسه ١٦٣
٣٧. المصدر نفسه ١٦٤
٣٨. المصدر نفسه ٢٠٩
٣٩. المصدر نفسه ٢٠٨
٤٠. مفهوم الشعر / دراسة في التراث النقدي / جابر احمد عصفور / المركز العربي للثقافة والعلوم / بغداد / ١٩٨٢ / ٨٧

٤١. ديوان كعب بن مالك ١٦٠
٤٢. المصدر نفسه ٢١٠
٤٣. المصدر نفسه ١٥٧